

التصل الثاني

الخلافة

- تطور نظرية الخلافة .
- الاسلام دين ودولة — الخليفة
مقيد السلطات .
- منشأ مشروعية الخلافة — السلطة
بين الخلافة والبابوية .
- واجبات الخليفة — تعريف الخلافة —
شروط صحة الترشيح للخلافة .
- مبايعة الخلفاء . وفضلها على
النظم المعاصرة .
- آذار اتاتورك على الخلافة — الصيغة
المقترحة لاعادة الخلافة .
- الاسلام والترقى — علة التخلف .

الخلافة

● تطور نظرية الخلافة :

قال « جوستاف جروينباوم » : وكان الطراز الوحيد من الحكام الذى عرفه العربى هو السيد « رئيس القبيلة » الذى يرجع فى رئاسته الى عراقه أصله وبعض الصفات الشخصية الهامة كالكرم والحكمة والشجاعة ، وعون الضعفاء وقد حاول أمراء بنى أمية (٦٦١ - ٧٥٠ م) = (٤٢ - ١٣٢ هـ) أن يحافظوا على آداب منصب السيد وصفاته المميزة ، وان كانت طبيعة مركزهم من حيث هم حكام امبراطورية مترامية الأطراف ، وخلفاء للنبي وأمراء للمؤمنين ، قد عفت تماما على نظام المثل الأعلى القديم ومجاله .

تم ولى العباسيون الخلافة بمعاوضة مسلمى الفرس خاصة ، فبرزت الى المقام الأول فكرة الملكية التى كان الايرانيون قد مروا عليها فى عهد حكامهم الأصليين ، غير أن صفة الملك المحتجب عن الدهماء المنسوب الى الآلهة لم تكن قادرة على الاندماج فى شخصية « السيد العربى » •• ويلوح أن العباسيين حاولوا أن يظهروا ملكيتهم بأشكال تختلف باختلاف أقسام رعاياهم العديدة ، ومهما يكن فقد أقامت الدولة الاسلامية ولاية العرش على مبدئين ، فان الله لما لم يشأ أن تستمر النبوة بالنص على تنصيب خليفة روحى لمحمد (ﷺ) •• فانه قد صار المؤهل لمن يعقل العرش أحد أمرين :

١ - اما وشيخة رحم تربطه برسول الله (ﷺ) بدعوى أن قبسا من الهامة ، أو من العنصر الالهى الذى جعل منه صفيا لله - قد انتقل الى عقبه ، أو بعبارة أصرح أن محمداً (ﷺ) قد عين ابن عمه وزوج ابنته على بن أبى طالب « وصيا » له •

٢ - واما أن اجماع الأمة يكل الى أحد المسلمين شئون الدولة

فبينتولى اداراتها وأعباء الحكم فيها ، وقد فاز الرأي الأخير ولكن سرعان ما أدخل مبدأ الموراثة بحكم الأمر الواقع ، حتى اذا شددت التقاليد الفارسية أركانها ، لم يقدم أحد - فى مدة خمسة قرون أو تزيد - على محاولة تنحية العباسيين عن عرش الخلافة ، وهم أبناء عمومة النبى •

على هذه المقدمات تطورت نظرية الخلافة مؤلفة بين قوى التاريخ المتباينة ، هادفة الى تمجيد الدولة الاسلامية ، وعاملة على تمطيط الأحوال الواقعية حتى تتعادل ومطالب المثل الأعلى ومستلزماته •

ووجوب تنصيب خليفة للمسلمين أمر منفق عليه بالاجماع •• وقد فصل الفقهاء القول فى هذا تفصيلا^(١) •

* * *

الاسلام دين ودولة

قالت الدكتورة « لورا فا جليرى »^(٢) :

لقد قيل : ان المدنية الحديثة قد حققت كل هذا التقدم المزدهر فى أوروبا لأن المسيحية قد فصلت القوة المدنية عن القوة الدينية ، ولأن الدول الغربية متحررة من نفوذ الكنيسة التى تمتعت به خلال قرون طويلة ، بينما لا يفصل الاسلام بين الدين والدولة فكلاهما جزء من كل حسب الشريعة •

والاسلام الآن دين ودولة بكل ما فى الكلمة من معنى • فضلا عن أنه قد أظهر « الله » للناس ، فقد أنشأ أيضا حقوقا وواجبات • وأقر ضرورة تنفيذها بالسلطة الزمنية •

(١) حضارة الاسلام لجوستاف جروينباوم ص ١٩٩ - ٢٠١ - ثم تفصيل ما يتصل بالخلافة فى الصفحات ٢٠٢ الى نحو ٢١٧ •

(٢) تفسير الاسلام ص ٧٢ ، ٧٣ •

● لا سلطة روحية للخليفة :

وليس الخليفة لدى المسلمين زعيما دينيا أو معصوما من الخطأ • وهو لا يدعى أن الله يوحى له بعلمه ، ولا يدعى القدرة على شرح القرآن للمسلمين باعتباره واسطة بين الله والناس •

● الخليفة مقيد السلطات :

وعليه — لكى يكون قادرا على تحقيق العدالة — أن يلم بما يكفى من الشريعة التمييز بين الحق والباطل ، ولكنه شأنه شأن باقى المسلمين فى فهمه للكتاب المقدس ، ولا طاعة له عليهم الا طالما بقى فى الحدود السليمة ، فان تخطاها حق لرعاياه تنبيهه الى واجبه وتحذيره ، فان سدر فى غيه (٣) كان لهم انتخاب خليفة جديد ، ويقول الرسول (ﷺ) فى أحد أحاديثه المشهورة : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

ولذلك فالخليفة حاكم مدنى من جميع النواحي • وليس حاكما دينيا يتلقى سلطانه من الله ، وتتبعه رعاياه نتيجة لايمانهم • ففى الاسلام ليس هناك الا قوة دينية واحدة — ان صح التعبير — هى القوة التى منحها الله لكل المسلمين من أحطهم الى أعلاهم ، وهى حض المؤمنين على العمل الصالح واجتناب المنكر ، وليس للقاضى والمفتى وشيخ الاسلام الا سلطات مدنية لا يستطيع أحدهم فرض سلطانه على عقيدة مسلم •

● متشأ مشروعية الخلافة :

وقال « باول شمتر » (٤) :

« كلمة خليفة معناها وكيل ، أو ممثل ، أو نائب • فكان النبى (ﷺ) يولى من يخلفه على المدينة اذا خرج فى غزواته ، وكان هذا الوالى يقوم بمهام النبى (ﷺ) وشبيهه بهذا الظرف تعيين خليفة للنبى بعد موته

(٣) يقال سادر فى الغى : تائه ، والمراد استمر يتخبط .

(٤) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٦ وما بعدها .

ليرعى أمور المسلمين تأميناً لاستمرار نشر الدين وحفظها، إكيان الدولة السياسية^(٥) .

وبناء عليه نستطيع أن نطلق على الخلفاء كلمة مديري المجتمع الاسلامى ، اتسع هذا المجتمع وانتشر الاسلام شرقاً وغرباً ، فأصبح لزاماً على الخلفاء أن يباشروا سلطانهم على هذه الدولة المترامية الأطراف كحكام ، لأنهم اعتقدوا أن محمداً لم يقيم ديناً فقط ، بل أسس دولة شملت كل ما يعرف بالدولة من نظم .

١ — أقام جيشاً قوياً ، ودربه وسلحه وأعدّه اعداداً كاملاً ، ليدافع عن الدين الجديد .

٢ — كان محمد (ﷺ) حاكم هذه الدولة .

٣ — رسم لأتباعها طريقهم فى الحياة الدنيوية ، الذى يوصلهم الى نجاح فى الحال ، وفلاح فى المآل .

● السلطة بين الخلافة والبابوية :

غير أن الخلفاء لم يكن لهم سوى السلطة الدنيوية ، فهم ينفذون ما شرعه النبى (ﷺ) ويضبطون أمور الدولة طبقاً للشريعة الاسلامية ، لم يمارسوا فيها سلطة فردية « أوتوقراطية » ، ولم يتمتعوا بمكانة روحية عند المسلمين كتلك التى يتمتع بها بابا الكنيسة الرومانية عند المسيحيين ، اذ يحتل البابا المركز الروحى الأول فى الكنيسة ، فقد طبقت الشريعة على الخليفة وعلى المسلم الذى لا يحتل أى مركز اجتماعى ، سواء بسواء ، لا فرق بين عظيم وحقير ولا بين غنى وفقير^(٦) .

(٥) وتبلغ أهمية ائمة خليفة المسلمين الى حد أن كان لها الأولوية على دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فى بيت عائشة رضى الله عنها .

(٦) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٦ وما بعدها .

وحضارة الاسلام لجوستاف جرونباوم ص ٢٠٤ ط الألف كتاب —
والمساوردى فى الأحكام السلطانية ص ٢٣ ، ٢٤ .

ولم يحدث فى تاريخ الاسلام أن ارتبط مقام الخلافة بالسلطة المطلقة ، أو بسلطة احداث تشريع جديد ، كما ارتبط ذلك بالبابوية الرومانية .

* * *

● واجبات الخليفة :

قال « شمتر » و « جوستاف جروينباوم » : ويحسن فى هذا المقام أن نورد ما قاله « الماوردى » أحد علماء المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى - أى فى عصر ازدهار الخلافة - عن واجبات الخليفة - قال فى كتابه « الأحكام السلطانية » : يجب على الخليفة :

١ - حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما جمع عليه سلف الأمة ، فان نجم^(٧) مبتدع ، أو زاع ذو شبهة أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، وأخذة بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروسا من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل .

٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

٣ - حماية البيضة ، والذب^(٨) عن الحرم ، ليتصرف الناس فى المعاش وينتسروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

٤ - اقامة الحدود لتصان محارم الله - تعالى - عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من أى اتلاف واستهلاك .

٥ - تحصين الشعوب بالعدة المانعة والقوة المدافعة حتى لا تظهر الأعداء بقوة ينتهكون فيها محرما ، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد ، دما .

٦ - جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم ، أو يدخل فى الذمة ، ليقام بحق الله (تعالى) فى اظهاره على الدين كله .

(٨) الدفاع .

(٧) نجم : ظهير .

٧ - جباية الفئء ، والصدقات ، على ما أوجبه الشرع نصا
واجتهادا ، من غير خوف ولا عسف .

٨ - تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال من غير سرف
ولا تقدير ، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ - استكفاء الأمانء^(٩) ، وتقليد النصحاء^(١٠) فيما يفوضه اليهم
من الأعمال ، ويكله اليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة ،
والأموال بالأمانء محفوظة .

١٠ - أن يياشر بنفسه مشاركة الأمور ، وتصفح الأحوال لينهض
بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض ، تشاغلا بلذة
أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويعش الناصح وقد قال الله تعالى :
« يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »^(١١) فلم يقتصر الله سبحانه
على التفويض دون المباشرة ، ولا عذره فى اتباع الهوى حتى وصفه
بالضلال ، وهذا وان كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة ،
فهو من حقوق السياسة لكل مسترع ، قال النبى ﷺ : « كلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته » .

● تعريف الخلافة :

لم تكن مهمة الخلفاء دينية ولا اقتصرت سلطاتهم حتى فى العصر
الذهبى على الناحية الفكرية والروحية ، فالخلافة هى : الواجهة السياسية
التي توضح نظرة الاسلام الى الحياة وموقفه من قضية الوجود ودعوته
فى المجتمع العالمى .

(٩) أى اختيار ذوى الكفاية الأمانء .

(١٠) أى اختيار الكفاءات المخلصة للرعية لتولى المسئولية .

(١١) سورة ص : ٢٦ .

● ما الفرق بين الخلافة والنظم الوضعية :

وقال « جورجى زيدان »^(١٢) :

« الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن فى سواه من قبل ، تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطين الدينية والدنيوية ، فتحمل الكافة - جميع المرعية - على مقتضى النظر الشرعى^(١٣) فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها .

وأما تلك - نظم القيصر وكسرى والامبراطور - فتنحصر فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ، ويحكم فيهم حکامهم حكما مطلقا .

وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ، ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبى صاحب تلك الشريعة ، وقد سموا الخليفة اماما تشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والافتداء به .

● شروط صحة ترشيح الخلافة :

للخلافة شروط أربعة يشترط توافرها فى الخليفة وهى : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس .

واختلفوا فى شرط خامس وهو النسب القرشى - أى ألا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش - وكان هذا الشرط مرعيا كل الرعاية فى سائر أحوال الدولة الاسلامية . وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ . وحجة الأئمة الحنفية فى صحة خلافة بنى عثمان أن الخليفة يتولاها بخمسة حقوق :

١ - حق السيف : ومعنى ذلك أن طالب الخلافة يجب أن يقوم

(١٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٢٧ وما بعدها .

(١٣) أى ما تدل عليه النصوص الشرعية .

بدعوته أنصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الأرض ، وقد كان ذلك شأن السلطان سليم بعد فتح مصر •

٢ — حق الانتخاب : أى مصادقة أهل العقد ، وهو مجلس من الأئمة والعلماء ••• فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الأزهر ، وأضاف اليهم عدة من علماء الأتراك • وألف من الفئتين مجلسا صادق على انتخابه وسلموه السيف • وكانت هذه هي العادة الجارية فى تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدي العلماء • وكانوا يفعلون ذلك فى جامع أيوب بضواحي الأستانة •

٣ — الوصاية : وهى وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته ، وقد أوصى المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الأتراك للسلطان سليم بالخلافة •

٤ — حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين — الا سبع سنوات تولاهما فيها أئمة صنعاء فى القرن العاشر • وسبع سنوات أخرى تولاهما فيها الوهابيون •

٥ — الاحتفاظ بالأمانات : وهى المخلفات النبوية المحفوظة فى الأستانة سلمت من اغتيال التتار فى بغداد • فحملها العباسيون الى القاهرة ، وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية •

● مباحة الخلفاء :

قال « جورجى زيدان » يبين فضل الخلافة على النظم المعاصرة : فطريقة الخلفاء الراشدين فى انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المتدنين حتى الآن • وهى جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى • أما الجمهورية : فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهى شوروية : لأن الانتخاب يكون بالشورى ، وهى مطلقة : لأن الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف

— فى حدود الشرع طبعاً — • فلما أضافت الى ذلك شروطها الأربعة التى ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الاطلاق • لأن الحاكم المطلق اذا كان عادلاً مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه •

هذا انى جانب ما فى طريقتهم هذه من أدلة التقوى والزهد فى الدنيا •

● بدعة وراثه الخلافة :

ثم قال : خاف معاوية من افتراق الكلمة اذا ترك الأمر بعده فوضى ، فبتطلبه بنو هاشم ، ولا يرضى بنو أمية تسليمه الى سواهم ، فبتئول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية ، فتجنبنا للفتنة بايع ابنه يزيد وخوفاً من الافتتان عاياه بعد موت معاوية طلب له البيعة فى حياته • وتربص ليرى ما يبدو من الناس فلم ير شراً • وجرى على ذلك خلفاؤه بعده ، الا عمر بن عبد العزيز • وجرى على ذلك العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين (١٤) •

وقبل ذلك بقول (١٥) : ان معاوية جعل الخلافة وراثية فى نسله ، لكنها لم تتعد أولاده ، ولم يخلفه منهم الا يزيد الذى بويع بولاية العهد فى حياته • ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب فى أثناءها أموراً كباراً ، فى جملتها مقتل الحسين بن على • ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة • وكان له ابن يسمى معاوية (الثانى) ، ولوه وهو لا يرى الخلافة حقاً لهم • ومات بعد قليل ، فبايع بنو أمية شيخاً أموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعه أشهر ومات • ثم انحصرت الخلافة فى نسله •

(١٤) تاريخ التمدن الاسلامى : ١٣١/١ •

(١٥) المرجع السابق : ص ٩١ •

● نوع المبايعة :

لم تجر الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد :

(ا) فقد كان المفروض أن تكون انتخابية ، ولهذا لم يوص رسول الله (ﷺ) بمن يخلفه ، بل ترك الأمر فى ذلك للمسلمين فاختروا أبا بكر •

(ب) ولم يشأ أبو بكر أن يدع الأمر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب •

(ج) وعندما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة • بل أوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختار الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله فى جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختروا عثمان بن عفان • فأما قتل — دون أن يوصى — اختار الناس عليا بلا شورى • فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لأنهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين فى الأمصار • لم يشهدوا بيعة على ، فمنهم من بايع ، ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس • ثم كان ما كان من أمر الفتنة المشهورة •

فلما قتل على أرادت شيعته حصر الخلافة فى نسله باعتبار أنهم بضعة من النبى ، فسألوه وهو على فراش الموت : أنبايع الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم • أنتم أبصر ، أما هم فبايعوا ابنه الحسن • وهذا تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان ، فصارت فى بنى أمية •

● يمين البيعة :

تناول « جورجى زيدان » يمين البيعة الشرعية وصيغتها فى عهد النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدين ، ثم أعقبها بذكر ما ابتدعه العباسيون

من الحلف بالطلاق والعتاق ومغلظات الأيمان وأخرجها ، ليستوثقوا من عدم انتقاص المبايعين عليهم ، ويأمنوا الثورة على حكمهم ، فقال :

البيعة هي العهد على الطاعة ، ويختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والأحوال ، وإن كان مرجعها واحدا فلما بايع الأنصار النبي (ﷺ) بالعقبة قالوا : يا رسول الله •• انا براء من ذمامك حتى نصير الى دارنا فاذا وصلت فانك في زمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا •

ويمين بيعة بنى العباس منذ طلبها لهم أبو مسلم الخراساني هي : « وأبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ • عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق (١٦) والمشي الى بيت الله الحرام على ألا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يبيتدئكم به ولا تكتم » •

وقد اختلفوا في نص يمين المبايعة ، وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ، ولكن الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على ما يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك •

● تطور صيغته :

وكان شأنهم في المبايعة الاختصار كما تكون الدول في أبسط أحوالها ، وكانت البيعة تتلى شفاهاً ، ثم صارت تكتب وتحفظ وكانت كلمات قليلة فصارت سطورا عديدة بما أدخلوه فيها من الحشو والاطناب •

وبعد أن صارت الخلافة وراثية كان الخلفاء يبايعون بولاية العهد لأولادهم أو لغيرهم من ذوى قراباتهم • وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم أهلا للخلافة يبيعوا لأحدهم ، وشرطوا أن يخلفه فلان أو فلان •

(١٦) أى تعنتق عبيده وامأؤه فيفقد ملكيتهم ويصيرون أحرارا •

● العهد :

والعهد : كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم أهل بيته ، ويدفعه الى ولى العهد أو من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة ، وقد يحفظه فى مكان أمين فى خزانة أو مسجد أو فى الكعبة كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لأولاده بولاية العهد ، أحدهما للأمين ، والآخر للمأمون ، وبعد هذا للقاسم .

ويدعى لولى العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة فيقال : اللهم وبلغه الأمل فى ولده فلان ولى عهده فى المسلمين ، واللهم وال من والآه من العباد وعاد من عاداه فى الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالبعى والعناد .

* * *

● تعقيب :

لم يكتب النبى ﷺ عهداً لأحد من بعده ، ولهذا فإن نظام كتابه العهد لولى الخلافة ، أو ولى العهد من مستحدثات الزمن ، دفع اليها معاوية خشية انشقاق الرعية عند موت الخليفة وخوف اضطراب الأمن اذا لم يكن للناس من يجمعهم على كلمة جامعة فور موت السلطان . ولما كانت الخلافة قد تسربت اليها أمور شكلية لا تتصل بنظام الحكم ، ولكن بالشكل والتقاليد « الايتيكيت » ، فقد تناولها « جورجى زيدان » ، وتتمثل عنده فى ثلاث :

● مظهر الخليفة :

١ — البردة : أى بردة النبى التى أهداها الى كعب بن زهير ابن أبى سلمى يرتديها الخلفاء .

٢ — الخاتم : اتخذ الخلفاء تشبهاً بالنبى وكان كل من ولى الخلافة يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب فى أسفل الكتابة وفى أعلاها باطين والمداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . وأول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير .

وذكر « البلاذرى » أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في أثناء ولاية العراق امتثالاً لما كانت الفرس تفعله •

ولما نشأت السلطنة جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء ، وهى نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها ألغاب الملك • وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده ، وكانت الدولة السلجوقية تسمى ديوان الانشاء ديوان الطغراء •

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم أسماءهم ، فقد كان نقش خانم أبى بكر (نعم القادر الله) ، وخاتم عمر (كفى بالموت واعظاً يا عمر) ، وخاتم عثمان (لتصبرن أو لتندمن) وخاتم على (الملك الله) وجرى على نحو ذلك خلفاء بنى أمية وبنى العباس •

٣ - **القضيب** : وهو ثالث علامات الخلافة وإذا تولى الخليفة جاءوه بالبردة ، والخاتم ، والقضيب ، وظل الأمر على ذلك فى بنى أمية وبنى العباس •

● **شارات الخلافة :**

ويقصد بالشارات العلامات التى تبرز هوية الدولة وانتماء أفرادها وسط الدول الأخرى التى وضعت لها علامات مميزة سواء فى زى رئيس الدولة أو العلم أو التقاليد المرعية ، أو المنشيد والسلام الوطنى ، وقد بينها « جورجى زيدان » فيما يلى :

١ - الخطبة باسم الخليفة : وهى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة •

٢ - السكة والنقود : أى الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان •

٣ - الطراز : وذلك أن يرسم الملوك والسلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسم من الحرير

أو الديباج أو الابريسم ، كأنها كتابة خطت فى نسيج الثوب لحاما وسدى بخيوط من الذهب أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز — التطريز — للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة : من السلطان فما دونه ، كما هى الحالة فى لباس أجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والأزرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها •

وأول من نقل الطراز الى العربية عبد الملك بن مروان •
وأنشأ الخلفاء للطراز دورا فى قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة ، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ، وهو ينظر فى أمور الصباغ والآلة والحاقة — الخياطين — فيها ، ويجرى عليهم أرزاقهم ويشارف أعمالهم •

ومن هذا القبيل ما كان يسمى فى الدولة الفاطمية بدار الكسوة التى كان قيمة ما يخرج منها من الكسى (٦٠٠٠٠٠٠ دينار) فى العام •
٤ — الهلال فى الدولة العثمانية •

٥ — وكانوا يعدون من قبيل شاربات الملك أيضا السرير والمنبر والتخت والكرسى والآلة وهى الألوية — الأعلام — والرايات والموسيقى •

آثار أتاتورك على الخلافة

قال : «أتين دينيه» : ونحن لا نستطيع أن نختم بحثنا هذا دون الكلام على تلك الأمور الخطيرة التى قررتها الجبهة الوطنية الكبرى بأنقرة فى سبيل الإصلاح • ونحن نبحث هنا دون تحيز ولا غرض — فى الأثر المباشر الذى أحدثته هذا الانقلاب الكبير •

● ما دوافع ثورة أتاتورك ؟ :

وفى ظننا أن الدواعى التى دفعت بحاكم تركيا المطلق الى القيام بهذه التغييرات انما هى واضحة الأسباب ، غاية فى البساطة •

فأول كل شيء رأى مصطفى كمال أن الخلافة قد صارت أداة للسوء
فى أيدي الأعداء ، فلم يجد بداً من الغائها •

ثم تلك الحرب الصليبية الجديدة التى أمام اللثام عنها المسيو
« أوجين جونج » وأظهر ما يكنه أعداء الاسلام له من خطير الدسائس
وكبير المكائد ، وأنهم يبررون أعمالهم ضد الاسلام قائلين : انه مظهر
التعصب الدينى — تلك الحجة الجوفاء التى لم تعد تذكر أمام تعصب
انغرب الشديد ، عند ذلك لم يجد مصطفى كمال مناصاً من تحاشي هذه
الهجمات فبدأ نه أن يتخذ طريقاً آخر غير ما كان يتخذ من قبل • رأى أن
ينسح المجال لقومه فى أن يأخذوا بالمدنية الغربية ما استطاعوا ، حتى
الزمهم بتبديل لباسهم ، واتخاذ النزي الأوروبى ، كما فصل بين الدين
والسياسة وأقام لكل منهما قوانينه • وكأننا به يقول : هاأنذا قد أخليت
بلادى من روح التعصب التى تدعون وجودها • فاتركونا فى سكوننا
ولا نقلقونا فتسلبونا راحتنا والا فها أنتم أولاء تثيرون الفتنة باسم
الصليب •

على أن الأمر الذى يهمنى فى موضوع هذه الاصلاحات الجريئة
هو معرفة قدر الأثر الذى أحدثته فى العالم الاسلامى •

● نتائج الثورة :

ليس غريباً أن تتسلط الشكوك والانفعالات النفسية على الكثيرين
بالنسبة لهذه الاصلاحات • وفى تقديرنا الخاص أنه كان فى استطاعة
أتاتورك أن يصل الى نفس النتيجة التى وصل اليها بالنسبة لموقفه
السياسى أمام أوروبا المسيحية ، وهى التى لن تنقطع عن أن تكون عدوته
الدائمة مهما فعل ، ومهما تقرب منها ، ومهما تغرب وتفرنج • نعم كان
فى استطاعته أن يصل الى غرضه ذاته ، وأن يقوم فى الوقت نفسه
بالاصلاحات التى تقتضيها المدنية الحديثة • كل ذلك دون أن يخرج
عن حظيرة الشريعة الاسلامية السمحة الواسعة •

وان المغالاة فى بعض هذه الاصلاحات . والأخذ بها الى حد بعيد المدى ، قد أفقدت مصطفى كمال عطف الكثيرين من المسلمين الذين أيدوه بحماسة عظيمة فى أول عهده ، وهو بافراطه هذا قد خسر من الوجهة السياسية ، كما أنه لم ينل عطف الأوروبيين أنفسهم ، وهم الذين اتخذهم لنفسه الأمثلة المختارة ، والنماذج التى أراد تقليدها . ولا يعوزنا البرهان على ذلك . فان المسيحيين أنفسهم قد وقفوا أمام هذه الاصلاحات موقف الخوف الممزوج بالغَيْظ والغضب ، ذلك لأنهم أعداء الاسلام من قديم الزمان .

وقد وضح الحق : كما أنه قد ظهر للعالمين موقف الغربيين الحقيقى فى الشرق ، وأنهم فيه أهل التعصب والغموض ، على أنهم قد نالوا جزاء ذلك ما فقدوا من النفوذ الكبير الذى كان لهم فى تركيا أخطر الممالك الشرقية الاسلامية .

* * *

● محاولة فتنة الخلافة :

وقال « باول شمتر »^(١٧) : قرر المجلس الوطنى فى تركيا فصل الخلافة عن السلطة ، فطبع بذلك الخلافة بطابع الروحانية وحصرها فى دائرة السلطة الفكرية الخالصة ، فأصبح مجالها مقصوراً على الناحية الروحية ومسائل العبادة ، وهذه صورة لم تعرفها الخلافة من قبل ، وإم يعهدا المسلمون فى خليفة نبيهم محمد (ﷺ) ولم نقرأ عنها فى تاريخ الاسلام .

أراد الوطنيون ابعاد الخليفة عن المجال السياسى فكرسوا جهدهم لتحويل الخلافة الى فاتيكان - أرادوا فتنة الخلافة - ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، لأن الخليفة الجديد المعين وهو ابن آخر سلطان لتركيا لم يقبل هذا التحديد للسلطة اطلاقاً ، وعارض اتجاه القوميين

(١٧) الاسلام ثورة الغد العالمية ص ١٥٨ - ١٦١ .

الرامى الى عزل الخلافة عزلا كلياً عن أمور الدولة السياسية • وأدى هذا الصدام بينه وبينهم الى هروبه من البلاد ، ومنذ ذلك الوقت تيمتت الخلافة لأول مرة فى تاريخ الاسلام •

● غلطة شبوخ الأزهر الرسميين :

فجر هروب الخليفة موجة غضب فى جميع أنحاء العالم الاسلامى اذ لا يقوم بالغاء الخلافة وطرد الخليفة الا حكومة تنصلت من الاسلام ••• ولكن سرعان ما هدأ الغضب •• وكان السبب فى ذلك فتوى خرجت من الأزهر •• تقول : ان ما قامت به الحكومة التركية انبثق من مبدأ لا يتعلق اطلاقاً بالمسائل الدينية ، بل بأمر قومى يخص الدولة التركية وحدها •

● غسيل المخ قبل الغاء الخلافة :

وتولى رجال العلم مهمة تغيير مفهوم الخلافة التركية فى عقول المسلمين ، ذاهبين الى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أتراكا ولم يكن سلطانهم معترفاً به فى كل أنحاء العالم الاسلامى (١٨) •

● محاولة لاستعادة خلافة راشدة :

غير أن كل الدوائر الاسلامية المعتدلة كانت ترى أن الاسلام فقد — بمحو الخلافة من تركيا — رمزا ذا أثر قوى فى الوحدة الدينية والأدبية فى العالم الاسلامى (١٩) ، ولذا اتجهت الآمال الى اعادة الخلافة بثوب مغاير للخلافة التركية ، وبصيغة غير خاضعة للاقليمية بحيث تكون فوق الارتباط بالمصالح القومية •

(١٨) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٩ — ١٦٠ •

(١٩) ومن هؤلاء المنصرين للخلافة مع النصح للخليفة والولاء بقوة •• الامام محمد عبده ، وقد نقدنا رأيه هذا فى كتابنا « الضالون كما صورهم القرآن » الفصل الثانى — موضوع « اقامة خليفة للمسلمين » •

● محاولة الانجليز احتواء التطلع للخلافة الراشدة :

وأعلن الشريف حسين والد الملك فيصل والأمير عبد الله — ملك شرق الأردن فيما بعد — في مارس ١٩٢٤ اطلاق لقب الخلافة على نفسه — معتقدا أن سلطته المدنية على الأماكن المقدسة ، وكذا نسبه ، يلعبان دورا في جمع المسلمين حوله • غير أن أبهة الخلافة لم تدم سوى نصف عام ، فقد اضطر « خليفة أوبريت الادارة الانجليزية » — كما سماه أحد المؤرخين الانجليز — أن يتقهقر أمام الهجوم الذي شنه « ابن سعود » على الحجاز •

ويفسر المراقبون خذلان العرب والمسلمين « حسيئا » بأن وقوفه مع الأوروبيين وقتاله في صفوفهم ضد الباب العالي أحدث ردود فعل لدى الرأي العام في العالم الاسلامي ، فاستنكره كثير من المسلمين وفسره البعض بأنه خروج عن الاسلام ، لأنه قتال في صفوف الكفار ضد المسلمين •

بعد أن اختفى « حسين » انتقل لقب جلالته الى أكبر أبنائه « علي » الذي تغاضى عن لقب الخلافة الا أن مملكته تفوقعت في جـدة ، ثم اضطر الى ترك الميدان لابن سعود الذي أدرك أن قيام مثل هذه الخلافة لا يكون له معنى ولا قيمة الا اذا اعترفت بها مراكز النفوذ السياسي والروحي في شتى الأقاليم الاسلامية ، وبهذا لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه « حسين » من قبل (٢٠) •

● الصيغة المقترحة للخلافة الجديدة :

ثم يقول « شمتر » (٢١) : « لو تتبعنا الصحافة الاسلامية لتبين لنا مدى عاطفة الشعوب الاسلامية نحو الخلافة •• وأنهم يعملون بدون كلال للوصول الى عودتها • ولكن على أي صورة يريدونها ؟

(٢٠) الاسلام قوة الغد العالمية : ص ١٦٣ •

(٢١) المرجع السابق : ص ١٦٦ •

يبدو للمطلع فى هذه الآونة أن المسلمين يرون أن تكون رمزاً معترفاً به من الجميع لوحددة العقيدة • وعلماً للمصير المشترك - ومنازاً تتوجه إليه أنظار المسلمين ، ونجماً يتلألأ فيكشف بهاء الإسلام ورونقه فى جميع أرجاء العالم وينير للمسلمين الطريق لاستعادة مجدهم وسيادتهم على هذه المنطقة الحيوية من العالم •

ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما قرأناه فى إحدى الجرائد العربية من المقارنة بين الوضع الذى ينبغى أن تكون عليه الخلافة المقبلة وبين وضع ملك إنجلترا ، فقد وضع الكاتب أن الخليفة على رأس العالم الإسلامى يشبه الملك الانجليزى على رأس المملكة المتحدة ، اذ ينبغى أن يكون الخليفة ممثلاً لوحددة تتكون من الدول التى تنضم مختارة الى وحدة اسلامية وتنظم سياستها مع غيرها من الدول الاسلامية على أساس اسلامى وتتحرك دولياً فى اطار دينى أخوى (٣٣) • وبذلك يكون الخليفة قاعدة لقيام وحدة اسلامية أو بتعبير أدق امبراطورية اسلامية » •

● ما نشأ عن ضياع الخلافة :

لقد تسبب عن ضياع الخلافة الاسلامية كثير من المتاعب للمسلمين بينها مؤرخو العرب ونجمها فيما يلى :

١ - الحكم المستبد :

يقول « برنارد لويس » : فقبل ذلك التاريخ كان فى الشرق الأوسط نظام سياسى مستقر • فالشاه يحكم ايران • والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التى تشمل كل ما بقى من الشرق الأوسط ، وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم ولكنهم كانوا مبرضع احترام •

والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم •

(٢٢) ويقيم شرائع الإسلام داخلياً •

فالسلطان هو الحاكم بلا منازع لأنه عاهل لآخر خلافة اسلامية تضم جميع مسلمى العالم تقريبا ، ثم عزل السلطان وهدمت الخلافة وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم وريحوا تصفيق وتأييد شعوبهم ولكنهم لم يكونوا أبدا موضع الرضا التام والقبول الطبعي والولاء الأكيد الذى كان ممنوحا لحكومة السلطان الشرعية ، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والارهاب أو الديقماجوجية السياسية فى الحكم .

يعنى ما ينفق على الدعاية للسلطة •

٢ - فقد هوية المسلم :

« وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط » هويتهم الواحدة « القديمة ، فبعد أن كان كل مواطن عضوا من أعضاء امبراطورية اسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة والتي تحاول الآن ايجاد جذور لها فى ضمير الشعب وولائه ، وصاحب نسف وانهيار النظام السياسى القديم على أية حال انحلال اجتماعى وثقافى مواز له •

٣ - ظهور ظاهرة التسبيب :

وربما كان النظام القديم فى حالة تفسخ ولكنه على أية حال كان قائما بوظيفته حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالن ، تجمع جميع فئات الشعب فى اطار واحد •

٤ - الشعور بالفريية فى دولة المؤسسات :

ثم دمرت الأساليب القديمة وسخر من القيم القديمة ، ثم أهملت وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب ، والتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال

المسلمين في الشرق الأوسط ، بالاضافة الى كونها تافهة بالنسبة
لحاجاتهم (٢٣) .

٥ - تغيير النظام الاجتماعى للمرأة بما يهدم الشرائع :

ويقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » فى فصل
« تعريب الاسلام » : وكانت تركيا « الكمالية » أول من فكر فى تغيير
نظام المرأة ، وكان هذا يعنى معارضة التواراة فى سفر التكوين
« والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » [الاصحاح الثالث
١٦ - ١٧] ، ومعارضة القرآن « الرجال قوامون على النساء بما فضل
الله بعضهم على بعض ويما أنفقوا من أموالهم » (٢٤) .

٦ - محو الشخصية الاجتماعية لتركيا :

يقول الدكتور «يوسف القرضاوى» : نشرت احدى جرائد مصر مقالا
لكاتب ألمانى كبير يخطىء فيه مصطفى كمال (باشا) فى اكراهه لقومه
الترك على تغيير زيهم الوطنى ++ واستبدال البرنيطة به ، وانما خطأه
تخطئه صديق ناصح لا عدو كاشح وقال (٢٥) : ان هذا ينافى غرضه وهو
تكوين القومية التركية .

« ونحن نظن أن مصطفى كمال باشا - وان لم يكن من علماء
الاجتماع والأخلاق وطبائع الشعوب - لا يجهل أن المحافظة على
المشخصات القومية مما يقوى تكوين الأمة ، وأن تقليد شعب الآخر يراه
أرقى منه يضعف قيمة المقلد فى نظر نفسه ، ويحقرها فى قلوب أهلها ،
ويرفع منزلة الشعب الذى قلده بقدر ذلك . ونعتقد أنه يتعمد هدم
جميع مقومات الشعب التركى ومشخصاته - ما عدا اللغة - لأنها

(٢٣) الغرب والشرق الأوسط ص : ٦١ تعريب الدكتور نبيل صبحى .

(٢٤) النساء : ٣٤ .

(٢٥) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا : يوسف القرضاوى

اسلامية أو مستندة الى الاسلام ، وهو يريد أن يسلمه من الاسلام كما تسل الشعرة من العجين ان أمكن ، والا انتزعهم منه كما ينتزع الحسك ذو الأضلاع من الصوف ، أو انتزعه منهم كما تنتزع الروح من الجسد •

« وقد بحث الذين بشوا هذه الدعوة في الترك من الملاحدة الروسيين وغيرهم عن مقومات وشخصيات تركية أو توارنية يستبدلونها بالاسلام ، حتى عبادة الذئب الأبيض الذى عبده سلفهم من همج الوثنيين فلم يجدوا الى ذلك سبيلا فاختراروا التشبه بالافرنج ، ولا سيما أفسدهم ديننا وآدابنا كالكلاطين ، بحجة الحضارة والترقى العصرى وسماهو التمتعرب ، ونحن نسميه التفرنج ، حتى ان بعضهم يستحسن استبضاع نسائهم من الافرنج بالحلال وبالحرآم ، لادخال دمهم — الشريف المذنى — فى دم الشعب التركى — الفاسد — لاصلاحه •

« فظهر بمجموع ذلك أن هؤلاء الزعماء الدخلاء يريدون أفساد هذا الشعب التركى بكل نوع من أنواع الفساد الجسمى والعقلى والنفسى ، وتكوين شعب آخر فى بلاده مذبذب بين أمشاج الشعوب ، روحه غير روحه ، ودمه غير دمه ، وأخلاقه غير أخلاقه ، وعقائده غير عقائده ، فيكون كلغته التى يسمونها التركى وهى لغة هذبية الاسلام كما هذب أهلها ، بما دخل فى مادتها من الأسماء والأفعال العربية وكذا الفارسية ، وهم يريدون الآن أن يفعلوا بها ما يفعلون بأهلها وان لم يبق من لغة قدماء الترك بعد أن تتفرنج وتتمغرب معهم وتكتب بالحروف اللاتينية كما هو مقرر عندهم ، الا قليل ، وما يدرينا بعد ذلك لعلهم يغيرون اسمها أيضا ؟ •

٧ — فقد الزعامة الدولية والرابطة المليية والفضائل الاسلامية :

« ومن الثابت فى سنن الاجتماع أن « تغيير القوانين والنظم والأزياء لا يغير طبائع الأمم — كما يقول الدكتور «غوستاف لوبون» — فان اللاتين الجمهوريين كالكلاطين الملكيين فى تشابه حكومتهم وطباعهم • حتى

ان الذين مرقوا من الدين منهم لا تزال القربة الكاثوليكية الموروثة هي الحاكمة على قلوبهم وأرواحهم بعصبيتها ، وانما فقدوا من الدين فضائله فقط ، وكذلك السكسونيون تشابهت حكومتهم الملكية فى بريطانيا وحكومتهم الجمهورية فى الولايات المتحدة كما تشابه أهلها — فالترك يفقدون بهذا التفرنج اللاتينى ما بقى فيهم من فضائل الاسلام وربطته المليية وما كان لهم من الزعامة فى مئات الملايين من البشر ، ثم لا يقدرّون على التفضى من الوراثة القرمية التى طبعتها الأجيال والقرون فى أنفسهم •

● الاسلام والترقى :

« فالغرض الأول لهم الآن التفضى من الاسلام بحجة الترقى العصرى ، وما فى الاسلام شىء مانع من الترقى الذى يطلبونه ، وأساسه القوة العسكرية والثروة والنظام بل الاسلام يهدى الى ذلك ، ولولاه لم ينل العرب عقب اهتدائهم به من القوة والحضارة ما فاقوا به جميع الأمم • وظلوا كذلك الى أن سلبهم الأعاجم سلطانهم بالقوة الهمجية ، ونال الترك وغيرهم به حضارة وملكا لم يكن لسلفهم مثلها • ولا ما يدانيها ، ولو أنهم فهموا الاسلام فهماً استقلالياً باتقان لغته والاجتهاد فى شريعته ، لماكوا به الغرب مع الشرق ، ولسبقوا جميع شعوب الافرنج الى العلوم والفنون والصناعات ، وسائر أسباب القوة والسلطان كما فعل العرب من قبلهم ، وهذا ما يطلبونه الآن بترك ما بقى لهم من تقاليد الاسلام ويتوسلون اليه بتقليد الافرنج فى زيهم وفجورهم • قبل انتحان شىء ما من علومهم وفنونهم ، والوصول الى مثل قوتهم وثروتهم » •

